

نظرة في الصّلات العربيّة الفارسيّة حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

وبما أن حديثنا محاط باطار تبادل التائر والتاثير بين العربية والفارسية ، فلذاكر أن للعربية فضلا على الفارسية هو فضل اتمام النقص وسد الحاجة من المفردات التي انتشرت في اللغة الفارسية، مع اقتباس وتشييع بالادب العربي وتاريخه وتاريخه تطوره اثر انتشار الاسلام والعربية في الشرق المسلم . وقد اخذوا منا كثيرا واخذنا منهم اكثر ، اخذنا منهم في العصر الجاهلي والاموي والعباسي والانحطاط ، ولا زالت بقاياها في لغتنا الحديثة الفصيحة منها والعامية، واخذوا منا منذ صدر الاسلام ، ولا زالوا ياخذون حتى اليوم . والعالم عندهم ، قديما وحديثا ، هو الذي يجيد العربية قدر اجادته للفارسية ، ومقياسهم العلمي والادبي للمرء مقدر بمدى معرفته للعربية وتمكنه منها .

يقول العوفي في كتابه « جهار مقاله : المقالات الاربعة » ، في هذا الشأن ما ترجمته : « لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيبا ، ومن كل استاذ نكتة ، وينبغي أن يمتاد قراءة كتاب رب العزة ، واحاديث المصطفى ، والنظر في صحف الخلف مثل ترسل الصاحب والصابي وقابوس ، والفاظ الامام وقداما ، ومقامات بديع الزمان ، ورسائل عبد الحميد ، ومن دواوين العرب : المتنبي والابيسوردي والغزالي . ومن شعر العجم الازرقى والفردوسي » .

للتبادل الثقافي مرحلتان : مرحلة ما قبل الاسلام ومرحلة ما بعده . وبما أن المجال ضيق والحديث

نعم ان العرب والعربية ، يوما ، وصلا اقصى الشرق واقصى الغرب ، اقصى الشرق حتى بلغوا مشارف الصين وتمديهاها ، واقصى الغرب حتى وطلا اعلى جبال البرانس وتخطياها . وقد سارت العربية مع الركبان ، وتغنى بها الحداء ، فسمعها الاغراب عن الاغراب ، فهزهم الشوق الى معرفتها ، فاقبلوا عليها يتعلمونها او غيرة من شهرتها وسلاستها ، فمالوا عليها يريدون أن يمشوا بها ولكن :

كناطح صخرة يوما ليوهنا

فلم يضرها ، واوهى قرنه الومل

ولقد خرجت اللغة العربية في العصور القديمة من الارومة السامية تاركة شقيقاتها : الفينيقية ، الكنعانية ، الاشورية ، العبرية . . وغيرها لتفوقها اسماها وامكانية عشرات المرات ، ولتفوز وحدها لغات فارس ، وباكستان والهند وتركيا ، ثم شمال افريقية وقلبها والاندلس وجنوب ايطالية . ولقد لمست اللغة العربية كل لغة من لغات تلك المناطق لمسات تتراوح بين التاثير الزهيد والدوبان التام .

ولا يعني حديثي هذا ان العربية اثرت ولم تتاثر ، لا ، فما من لغة في الدنيا لم تطعم غيرها ولم تتطعم بفيرها ، واللغة التي لا ترفد ولا ترفد تعتبر جالسة ضيقة المحيط والامكانية . كما لا يضير لغة تاثرها بجاراتها او بجاراتها ، ولا يحط ذلك من قدرها .

وقد كانت الاتصالات العربية الفارسية قبل
الحيرة غالبا عبارة عن معارك وأهانت من قبل القبائل
لتنسفيد من خيرات فارس ، فيقوم جند كسرى لصد
وقتل العابثين .

اما من الناحية التجارية ، وهو امر هام كذلك ،
فقد كانت الجزيرة العربية سوقا لبضائع فارسية
وهندية ، كما كانت محطات لقوافل فارسية ، كانت
في طريقها الى بلاد الروم او الى بلاد اليمن السعيد .
وقد كانوا يخشون على قوافلهم التجارية من هجمات
القبائل لذا استعانوا بالعرب كثيرا ، كما اشرت ، على
هذه القوافل ايام السلان والصفقة . وقد كانت مكة ،
كما نعلم ، سوقا عالمية ، فيها تجار من شتى الاقاع .
وكما يحدثنا الواقدي انه كان فيها ممثلون تجاريون
لفارس وبيزنطة ، كما كانت اللراهم الفارسية من
العملات الرائجة آنذاك . وقد كانت بلدة « جرة » على
الخليج العربي سوقا تجارية لبضائع الهند وفارس ،
وقد أسست هذه المدينة في القرن الرابع قبل الميلاد .

وعندما ازدادت اتصالاتهم بالعرب ، حربا
وتجارة ، فكروا بتأسيس امارة على تخومهم ، يحمون
بها انفسهم مغبة هجمات القبائل ، فأسسوا دولة
المناذرة في العراق ، ومهمتها جمع الضرائب وتقديمها
للبلاط الاعجمي ، وحماية التخوم ، كما فعل الروم
بتأسيس دولة الفساسنة على تخوم الشام .

ونظرا الى اهمية الحيرة ومكانتها من الادب
العربي والعلاقات مع الفرس ، ونظرا الى النهضة
الشعرية التي برزت فيها ، اجدني مضطرا للوقوف على
ابواب الحيرة وتصريها ، لاطرقها ، ولانتظر جواب
محدثنا عن الخورنق والسدير .

ترجع نشأة هذه الدولة الى « جذيمة الابرشي »
الذي خضع للفرس ، واستعان بهم على شسء من
السيطرة على القبائل في بادية الشام . ثم ان «رقاش»
أخت جذيمة تزوجت رجسلا من بني اخوالها اسمه
« عدي بن نصر اللخمي الايادي » ، ورزقت منه صبيا
سمته « عمرا » ، فلما مات جذيمة عام 268 م خلفه
عمرو هذا ، واتخذ الحيرة على مقربة من « بابل » ومن
الكوفة اليوم ، منزلا له . فمن عمرو هذا جاء ملوك
الحيرة .. وقيل غير ذلك .

ويظهر ان كلمة (الحيرة) سريانية ، ومعناها
المسكر ، وهي في الاصل (حرثا) . وقد كانت مكونة
من قصور محصنة حول ميدان واسع . وينسب بناءه
قصرى الخورنق والسدير الى النعمان الاول السدي

شيق ، والمرحلتان واسعتان ، فاني اكتفي باستعراض
لمحات ترمي الى مدى التبادل الثقافي الذي كان
يجري في الجاهلية وحتى مطلع القرن الهجري الاول ،
مرجئا الحديث عن المرحلة الثانية ، وهي الاوسع ،
الى مقالة ثانية ان شاء الله .

اما المرحلة الاولى فقد كان العرب على اتصال
مع الفرس منذ كوروش الذي توفي (550 ق. م) اذ
دفعوا له الجزية ، ثم اهانوا ابنه « كبوجية » ، والذي
اسماه العرب (قمبيل) ، عام (525 ق. م) على
فتح مصر والسودان . كما يروى ان الفرس كانوا
يعظمون البيت الحرام ، ويحجون الى مكة ، ويطلقون
بالبيت ، ويؤمنون على بشر اسماعيل . ومن جملة
الاكاسرة اللذين حجوا الى مكة « ساسان بن بابك »
مؤسس الدولة الساسانية . وفي ذلك يقول أحد
الشعراء الفرس مفتخرا :

وما زلنا نحج البيت قدما
ونلقى بالاباطح آميننا

وساسان بن بابك سارحتي
اني البيت العتيق يطوف ديننا

نطاف به وزمزم عنسد بشر
لاسماعيل تروي الشارينا

وقد وجدت مدينة عربية بين دجلة والفرات في
زمان « شاور بن اردشير » سنة 273 م ، قبل ان
تعرف مدينة الحيرة وكان اسم مالكا « الساطرون » ،
والعرب تسمى المدينة « ضيزن » ، وسكن فيها
قبائل من قضاة وبني مبيد ابن الاجرم . وكان
الساطرون على حرب دائم مع شاپور . وقد استطاع
هذا فتح المدينة وقتل الساطرون ، وفي ذلك يقول
« عمرو بن آله » :

الم يحزنك والانباء تنمي
بما لاقت سراة بني مبيد

ومصرع ضيزن وبني آبيه
واحلاس الكتائب من تزييد

اتاهم بالفيلول مجللات
وبالابطال ، سابور الجنود

فهدم من اواسي الحصن صخرا
كان ثقاله زبر الحديد

اوائل البعثة الى مكة ، معاديا في ذلك الدين الاسلامي .
ولقد رحل بعض العرب الى بلاد الفرس بقصد

التنزه والسياحة ، او كانوا رسل الملوك والتجار
فراة امينهم معابدهم الكبيرة ، ومبانيهم الفخمة ،
وراوا كيف يمشون ويطعمون ويشربون ، وسمعوا في
مجالسهم الحكايات والاقاصيص وحياة الملوك ، فائر
هذا الى حد ما ، في عقلية العربي ، والشاعر منهم
خاصة ، فذكر ما رأى واستفاد من هبرهم ، واقتبس
من معتقداتهم .

كما كان عرب الحيرة اذ ذاك في رخاء يحسداهم
عليه فبرهم من العرب ، ولخصب ارضهم ولغنى
اقلبيهم . فكان اذا جاء الشاعر الى الحيرة يتأثر
بالطبع من هذه الزيارة ، فيتسع خياله وتناغم افكاره .
وعلى هذا فقد كان لكل ما مر اثر في الادب العربي وفي
الحياة الحضارية والعقلية . فأحاديث جديمة الابرش
واساطير الزباه ، والخورنق والسدير ، والاقاصيص
حول سنمار ، والامثال التي ضربت فيه ، ويومنا
النعمان : نعيمه وبؤسه . كل ذلك وغيره كان سببها
هذا الاتصال الذي كان يجري بين الامتين المعنيتين
ومن اهم الشعراء العرب الذين ذهبوا الى بلاد فارس :
الامشى ، والذي لقب « صناجة العرب » ، وصناجة
كلمة فارسية من (جنك - سنج - صنج) وهي الآلة
الموسيقية المؤلفة من قطعتين معدنيتين مدورتين
يضرب بهما . ويكفي ان نورد قطعة من شعر الامشى
لنستدل على كثرة الالفاظ الفارسية المستعملة في
الجاهلية . يقول في مجلس انس يصف الخمرة وساقها
والازهار المحيطة بهم . وتجد ثمانى عشرة لفظة
فارسية اقلها في وصف الازهار ، في سبعة ابيات :

بيابل لم تعصر فجاوت سلاله

تخالط قنديدا ومسكا مختما

يلوف بها ساق علينا مشوم

خفيف ذفيف ما يزال مقديما

بكاس وابريقى كان شرابه

اذا صب في المصحاة خالط بقما

لنا جلسان عندها وينفسج

وسيسنبر والمرزجوش منمنما

وآس وخيرى ومرد وسوسن

اذا كان هنزمن ورحت مخشما

وشاهسفرم والياسمين ونرجس

يضبحنا في كل دجن نفيما

حكم بين 400 - 418 م . وقد بنى النعمان قصر
الخورنق قرب الحيرة ، بناه المعمار الرومي الشهير
« سنمار » . والخورنق كلمة فارسية اصل لفظها
(خورنكاه) او (خورنه) ، وهو الابوان لدى ملوك
الفرس ، كان يستخدم للاستفاداة من اشعة الشمس
وللمصادة ، وهربت الكلمة الى (خورنق) ، ثم صارت
في مصر (الكرنك) .

كما بنى السدير في بادية الشام ، واصل الاسم
(سه دير : القباب الثلاث) . وقد بناهما النعمان
عندما ارسل « بردكرد » وهو « بهرام كور : بهرام
الحمار » الى الحيرة لينشأ نشأة فروسية ، ويربى
تربية قوية ، ويتعلم القنص ، وينعم بجودة الهواء ،
وكم تفضى الشعراء بجمال هذين القصيرين ، وخاصة
هدى والامشى .

وتعلم بهرام هناك العربية ، ويحكى انه قال
الشعر العربي ، كما نسب اليه اول بيت شعر
بالفارسية . وبعد وفاة ابيه نازعه اخوه على الملك ،
فاستعان بالعرب ليصل الى الملك ، وكان له ذلك ،
ولما اهتلى العرش لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد
عليه فبرهم وأعلى شأنهم .

وقد كان للنعمان كتابات عسكرية اهمها اثنتان
الاولى (الشهباء) وهي فارسية ، والثانية (دوسر :
ذات الراسين) وهي عربية . وقد انتقلت التجارة
الفارسية رسميا الى عرب الحيرة ، فنقلوا بضائعهم
وحموا قوافلهم .

نستدل من ذلك كله ان التبادل جرى عن طريق
التجارة اولا وعن طريق الجوار سلما وحربا ثانيا .
هذا الاتصال الوثيق كان يجبر الطرفين ان يستخدموا
مترجمين يقومون بالاتصال بين القصرين العربي
والفارسي ، ومترجمين يرافقون اصحاب القوافل
التجارية . فقد كتب (لقيط بن يعمر الايادي)
لكسرى وترجم له ، وكان (هدى بن زيد) من ترجمة
كسرى ابرويز ، كما كان ابوه زيد على معرفة
بالفارسية .

كما كانت مدرسة (جند يشابور) معهدا
لدراسة الطب والفلسفة والموسيقى ، فرحل بعض
العرب لتعلم الطب ، منهم (العارث بن كدة الثقفي)
الذي اتمن في ذلك المعهد الطب والعرف . وذهب
كذلك ابنه « النضر » الى هناك ، وكلف بالفارسية .
وهو الذي كان يحكى اقصيص رستم واستفنديار في

فقطع العرب احزمة رواحل نسايم ، ليستميتوا
دفاها عن الحرائر اللواني لا يستطن الفرار على رواحل
تقطعت احزمتها . فاتجلت الممركة من هزيمة الفرس ،
فأشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل خاصة ،
كقول الدهان بن جندل :

ان كنت ساقية يوما على كرم
فاسقي نوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي نوارس حاموا من ديارهم
واعلى مفارقهم مسكا وربحانا

وكان العراق من اخصب اراضي الجزيرة
بنهرها ، وبالحضارة المتبقية من حضارات الامم
الاصلية ، ومن المناثرة المتأثرين بحضارة الاكاسرة .
وقد امر عمر بن الخطاب (رضى) انشاء مدينتي
البصرة والكوفة حول الحيرة ، فتحولت اليهما كنوز
المدائن وحضارة البلاد . وبما ان سكان هاتين
المدينتين من العرب ومن الموالي ، فقد اضطر هؤلاء
الى تعلم العربية ، فكانوا اول من اتقن العربية والف
فيها .

ولما استقر الاسلام والعرب في العراق وفارس
وخراسان حصل الاتصال المباشر بين الامتين . لذا
فقد اختلفت عوامل الاتصال والتبادل الثقافي بمد
الاسلام عنها قبل الاسلام . فلم تعد فردية ، كما لم
تعد سطحية او ضيقة المجال الزمني ، واذا رجعت
كفة الفرس في الجاهلية ، واذا كان التأخر من طرف
العرب هو الغالب قبل الاسلام فقد اختلف الامر منه
بعد الاسلام ورجحت كفة العرب ، نظرا الى ان الاتصال
جماعي وعميق وطويل الاجل .

ويرجع السبب الاول لهذا الاتصال الى فتح
العرب لارض فارس وحكمها . ولن اتحدث عن المارك
التي جرت بينهما حتى استقر الامر للعرب ، فهذا
حديث طويل لا تسعه صفحات ضيقة المجال ، كما
انه ليس محور حديثنا . ومن نتيجة ذلك انفسج
المجال لتيارات وصلت الشعبين ببعضهما حياة
وتكرة . وصارت الخيوط التي كانت تصلهما في
الجاهلية طرقا نسيحة مبهدة ، وصارت العلاقات
الفردية روابط اجتماعية وثيقة ، واصبحت الصلات
الموقوتة مري دامت قرونا نسيحة . وحسبنا ان
نشير الى ان العرب اسسوا على حدود الفرس مددا
من المدن اتخذت الطابع الفارسي ، كما كان اسم
اغلبها فارسيا ايضا ، من ذلك : البصرة (بسراه :
بعد الطريق) ، الكوفة ، الانبار (المخزن) ، ثم صارت

ومستقى سبنين وون ويربط
بجاويه صنع اذا ما نرمنسا

وهناك ، كذلك غير الاعشى ، عدى بن زيد الذي
كان ميلا للفرس في بلاط الحيرة . ولن ننسى النابغة
الذبياني وصاحبه النعمان ابا قابوس ، وما كان له من
فضل على ايجاد باب الاعتذار في شعر المصرب ،
واستخدامه للالفاظ الفارسية في الشعر العربي ، ثم
هناك قيس بن الخطيم ، وطرفة ومالك بن نويرة ،
وعمر بن كلثوم ، وحسان .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تأثرا في الامم وفي
آدابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي
المجوسية ، والمناوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك
بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلهم بها
وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من
عناصر الطبيعة وهي التي عبدها الفرس والشرق ،
وبدا ذلك كله في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار
الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وابى
تمام . ولا ادل على تأثرهم بالاديان الفارسية من قول
ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان
العرب في الجاهلية :

« وكانت النصرانية في ربيعة وفسان ، وبمضى
قضاة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني
الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في نيم ،
وكانت الزندقة في قريش . . اخذوها من الحيرة » .
وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله
قبلا ومين مكانه الحارث بن عمرو امير كنده . بعد ان
اعتنق المزدكية .

وتذكر كتب التاريخ ان يوم ذي قار (610 م) ،
فخر العرب ، حصل فيه اول معركة قام بها العرب
باجماع تقريبا ضد امة عربية حاكمة ، واحداث هذه
المعركة معروفة ، وقصة ظفرنا فيها تحكي صفحة من
صفحات مجدنا العريق . فقد قتل النعمان عدى بن
زيد ، فرد كسرى انتقامه بقتل النعمان ، فاستمد
العرب واستمد الفرس . وكانت النسوة العرب
يخرسن الرجال عن الاستبسال ، ويلهين بطولتهم
بأناشيد حماسية ، منها :

ان تهزموا نمانق
ونفرش النممارق
او تهربوا نفارق
نراق غير وامق

في العامية عنبر) ، بغداد (الله المعطي ، حديقة الله)
، وسرعان ما امتلأت هذه المدن بالعرب ، وسرعان
ما وفد إليها الفرس . ثم غدت مراكز للثقافة العربية
الإسلامية .

كما اعتنق الفرس الإسلام مختارين ، تخلصا من
المظالم التي اصطلوا بناها قبل الإسلام ، فتسابقوا
إلى تعلم العربية على أنها لغة الدين والحكم . وقد
ازداد الاختلاط في زمان العباسيين ؛ وكما نعلم أن
للفرس ضلعا قوية في تأسيسها . ولقد زاحم الفرس
العرب في الوزارة والحجابه وقيادة الجيوش وجباية
الإموال وولاية الأقاليم وإدارة الدواوين ومنادمة
الخلفاء وقرض الشعر .

ولقد دخلت القرآن الكريم الفاظ فارسية منها :
ابريق . طبق . سراب . سجيل . جرف . سندس
مسك . كافور . خندق . استبرق . كنز . ومن
شاء الاطلاع على الألفاظ الفارسية في القرآن فليرجع
إلى الاتقان للسيوطي أو إلى المعجم الذي كتبه
« آرتور جفري » في الدخيل من كلمات القرآن التي
قبسها العرب من الفرس ، وهي مما سنتحدث عنها
في مقالتنا القادمة .



ومن الحق أن نقول أن للفارسية فضل راب
الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذي تطلبه

المعصر الجديد بعد الفتح ، فدخلت في قرآنا ونثرنا
وشعرنا وأمثالنا . وإذا كنا نأثرنا بهم حكما وسياسة
وتابعة ودينا ولغة قبل الإسلام ، فإننا أثرنا باستقلالهم
وأديانهم ولغاتهم بعد الإسلام . ولما ضاع استقلالهم ،
واندمجوا في دولة الإسلام التي قادها العرب ، ولما
ضاعت أديانهم وذابوا في الديانة الإسلامية انغمسوا في
العربية ؛ قرآنها وآدابها وعاداتها . وما هي الأفترة
وجيزة حتى غدت الألفاظ العربية مبنوثة في النصوص
والأحاديث الفارسية بشكل لا يمكن التخلي عنه بأية
حال . فما من نص إلا وفيه ثلاثون بالمائة أو أكثر من
الألفاظ العربية ، وما من قصيدة إلا وأغلب قوافيها
عربية .

ويعتبر الأثر العربي الأول في الفارسية تغيير
الخط البهلوي الصمب بالخط العربي السهل ، فنراه
منذ أوائل الإسلام يغيرون الألفباء البهلوية بالألفباء
عربية مضيفين إليها أربعة حروف فقط لم يكن رسمها
موجودا في العربية لعدم وجود نطقها ، فرسموها بشكل
مناسب للحروف العربية القريبة النطق منها . فكتبوا
(ب) بأه بثلاث نقاط ، و (ج) جيما بثلاث نقاط ،
وكذا (ث) زايا بثلاث نقاط . ووضعوا خطا آخر فوق
الكاف لكاف الفارسية .

(يتبع)